رسائل الصاحب بن عباد

(جمعها وقدم لها عبد الوهاب عزام بك ، وشوقي ضيف)

الصاحب بن عباد من أئمة أدباء القرن الرابع ، وهو تلميذ ابن العميد ، وكلاهما كان وزيراً في دولة بني بويه . وكانت آثار الصاحب بن عباد مطوية في بطون المخطوطات حتى نهض الأستاذ العميد وصاحبه ، فأخرجاها إلى نور الطباعة ، مع العناية بالتصحيح والتحقيق ، وتجلية الصاحب بالتعريف والتقديم . فإذا بالجوهرة الخفية في خزائن الدور ، تتكشف وتبرز إلى النور ، وهذا عزم من الأستاذ عزام مشكور ، يحمده له قراء العربية ، لأن إبراز كنوز الأدب القديم بعد الخطوة الأولى في بناء الحضارة الإسلامية.

ولهذه الرسائل قيمة تاريخية ، وقيمة أدبية ، كما ذكرا في المقدمة ، ونستطيع أن نضيف إليها قيمة اجتماعية كذلك . فالباب الأول في البشائر والفتوح ؛ والثاني في العهود ؛ والثالث في الأمان والإيمان والموافقات والمناشير؛ والرابع في الوصاة بالحجيج والمصالح وأمر الثغور ؛ والخامس في الاستعطاف لقلوب أولياء الدعوة والتودد إليهم بمباسطتهم وما يقارب ذلك ؛ والسادس في إصلاح ذات البين والدعاء إلى الطاعة وتهجين العقوق بين ذوي الأرحام ؛ والسابع في المدح والتعظيم ؛ والثاني في الذم والتهجين ؛ والتاسع في التهاني والأجوبة ؛ والعاشر في التعازي ؛ والحادي عشر في الإخوانيات واللاطفات والمداعبات ، والثاني عشر في التشكر وما يشاكله ؛ والثالث عشر في الاستزارة والتقريع ؛ والرابع عشر في التنصل والاسترضاء ؛ والخامس عشر في الشفاعات ؛ والسادس عشر في توصية الرسل بتجلب المال وإظهار العفاف وحسن السياسة ؛ والسابع عشر في الآداب والمواعظ . الخ

وقد عرضت فهرس هذه الرسائل لتعلم أنها تتشعب في كل فن وتضرب في كل باب ، حتى لتعد صورة صحيحة للعصر الذي كان يعيش فيه الصاحب ، بل هي مرآة للحياة الاجتماعية وما ينبغي أن يكون عليه أدب السلوك ، أو الأخلاق العملية كما نعبر اليوم . ولهذا كنت أحب ألا يقف المدخل الذي دبجته براعة العميد وصاحبه في التقديم عند حد القيمة التاريخية والأدبية للرسائل . وفي الحق إن هذه الدراسة مثال لما ينبغي أن تكون عليه دراسة الأدباء في تحقيق سيرتهم ، ونقد أساليبهم ، لولا الطمع إذ كنا نشتهي المزيد . ولا تظن أن هذه الدراسة قصيرة فهي تقع في عشرين صفحة من القطع الكبير .

أبرز صفة في هذه الرسائل ، وهي مما يمتاز به الصاحب بن عباد أو قل إن شئت إنها سمة العصر كله ، التزام السجع وتكلف البديع أو كما انتهى المدخل إلى القول « ونرى من كل ما سبق أن الصاحب عني في رسائله بالسجع ، فلا ينفك عنه إلا نادرا ، كما عني بطول الجمل وتحليتها بالبديع ، وخاصة الجناسات والاقتباسات والتشبيهات والاستعارات » .

وعندي أن شيوع الزينة اللفظية ، والتنميق الخارجي للأساليب ، إنما يرجع إلى أن الحضارة الإسلامية وقفت عن الابتكار ، وانصرف الناس مع استتباب الملك وغنى الدولة إلى شغل الفراغ بالتأنق والتجمل ولهذا تجد الحلية والزركشة والزينة تدخل إلى صميم كل فن من الفنون . حلية في الخط والكتابة ، وفي النقش والعمارة ، وفي الملابس والنسيج ، وفي الشعر والنثر كذلك .

وسأل المحققان في دراستهما أنفسهما سؤالا له قيمة عظيمة « أكان للفارسية أثر في كتابة الصاحب ، وقد قلنا آنفا إنه كان يتقن الفارسية ؟ » .

ويبدو أن عبد الوهاب عزام بك — وهو أستاذ الأدبين والعارف باللغة الفارسية — آثر التحوط فقال « وأما أن تركيب الجملة العربية طاوع تأثير الفارسية ، أو أن أسلوباً من أساليب العربية يعد محاكاة لأسلوب فارسي ، فأمر عويص ينبغي ألا يقدم عليه الباحث المتثبت إلا بعد بحث طويل دقيق » .

فأنت ترى أن علامة الاستفهام لا تزال موجودة أمام السؤال والطريق مفتوح أمام الباحثين .

وقد وقفت طويلا عند قول المحققين « ونحن نجد في الرسائل نزعة واضحة إلى القول بالاعتزال والدعوة إليه » . فهذا البحث ، وأعني به الاعتزال والكلام وما يتصل بهما مما تهفو إليه نفسي ، وكنت أحب أن أجد في الرسائل ما يشبع رغبتي ، صحيح إن ياقوت يقول عنه إنه كان « مثل أبيه يذهب مذهب الاعتزال » . غير أن قول ياقوت يحتاج إلى تأييد من نصوص الصاحب نفسه . والذي اعتمد عليه المحققان في نسبة الاعتزال إليه ما جاء في الرسالة التاسعة من الباب العاشر « مولاي يتدين بتعديل ربه ، ويعرف مواقع اللطف في صنعه ، ولا يشك في اقتران الصلاح بفعله » . وهما يعتمدان أيضاً على رسالتين في الباب السابع عشر حيث يقول في الرسالة الثانية إلى أحد الشيوخ بعد كلام « وعلى هذا الذكر فقد كان هذا البلد من البلاد المستغلقة على أهل عدل الله وتوحيده والتصديق بوعده ووعيده . هذا وفي فقهائه وفور وفي الفضل به ظهور ... » وشهرة المعتزلة بأنهم أهل العدل والتوحيد ، والوعد والوعيد ، أعظم من شهرتهم بالتعديل والصلاح.

وجاء في الرسالة الثالثة تحت هذا الباب نفسه ، يكتب إلى إلى أهل الصيمرة « ... ووصل كتابكم ... إذ كنتم بحمد الله ومنه ، وطوله وفضله ، المشتهرين بالذب عن توحيد الله وعدله ، وصدقه في وعيده ووعده ، وكان بلدكم من بين البلاد كغرة أدهم وشهاب في ليل مظلم ، وما في النعم أجل موقعا ، وأهنأ مشرعاً من النعمة في القول بالحق والدعاء إليه ، والتدين به والبعث عليه ، ومهانة من شبه الله بخلقه ، فتتابع في جهده ، أو جوره في فعله فشك في حسن نظره وطوله» وهذا نص آخر أكثر في الاعتزال بياناً ، فيه العدل والتوحيد ، والصدق في الوعد والوعيد ، ونفي التشبيه ، وامتناع التجوير .

وهنا نستطيع أن نطمئن إلى ما ذكره عنه ياقوت من أنه كان يذهب مذهب الاعتزال . ولكن الدكتور عزام بك والدكتور ضيف لا يطمئنان إلى أن الاعتزال « أكان هذا من عمله هو ، أم من عمل الدولة ، فقد كان عضد الدولة يذهب — فيما يظهر — إلى الاعتزال » .

وبعد فإنا نهنىء المكتبة العربية بهذا الظفر الأدبي ، وبهذه الدراسة العميقة الممتعة ، ونرجو أن ينهج الذين يخرجون المخطوطات هذا النهج السليم .

أحمد فؤاد الأهواني

شجرة الدر

(تأليف الأستاذ محمد سعيد العريان)

اتجه الأستاذ محمد سعيد العريان منذ زمن إلى القصص التاريخي الذي يجمع إلى عرض التاريخ وتحقيق حوادثه المتعة الفنية الأدبية ، وقد عني بتاريخ مصر في العصور الإسلامية ، يجول في نواحيه بمصباح المؤرخ ، ويسرح بين وقائعه بخيال القاص الأديب . وأول عمل له في هذا الحقل قصة « قطر الندى » ثم أخرج بعدها « على باب زويلة » وفي شهر نوفمبر الماضي أخرجت له دار المعارف قصة « شجرة الدر » في سلسلتها الشهرية (اقرأ) .

تقع حوادث هذه القصة في نحو ربع قرن من الزمان ، يقع فيها أواخر العصر الأيوبي وأوائل عصر المماليك البحرية ، تبدأ في حصن كيفا الذي اتخذه الأمير نجم الدين أيوب قاعدة لإمارته في الشرق حيث ظفر هناك بالجارية الصغيرة الحسناء « شجرة الدر » التي ولدت له فيما بعد وأصبحت زوجته ، وتنتقل حوادث القصة إلى الغرب مع ركب الأمير نحو مصر ، بعد أن بلغه نعي أبيه الملك الكامل ، وقد عول على أن ينتزع العرش من أخيه العادل الذي كان أبوهما قد ولاه العهد ، فيتم له ذلك بعد وقائع ومخاطر في الطريق كانت شجرة الدر عونا له على اجتيازها والتغلب عليها ويصبح الأمر في مصر للملك الصالح نجم الدين أيوب ، وإلى جانبه زوجته شجرة الدر تعاونه بسديد رأيها وحكم تدبيرها . حتى يغزو الصليبيون مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، فينزلون إلى دمياط ويهزمون الحامية ، ويقصدون إلى المنصورة التي اتخذها الملك الصالح قاعدة له في ذلك الوقت ، وتتجمع القوى المصرية فتفتك بالصليبيين فتكا ذريعاً ، ويؤسر لويس التاسع ، ثم يضطر المعتدون إلى إغلاء فدية ملكهم ويخرج من بقي منهم إلى بلادهم مدحورين . وفي أثناء ذلك يموت الملك الصالح وتخفي شجرة الدر أمر موته حتى يحضر ولده الأمير توران شاه من المشرق فيأخذ مكان أبيه ، ثم يقتله أمراء الجيش من المماليك الذين كان يستعين بهم الملك الصالح في حروبه ، وقد أبلوا في قتال الصليبيين وهزيمتهم . فتتولى الملك شجرة الدر ثم تتزوج أحد أمراء المماليك (أيبك الجاشنكير) وتخلع نفسها وتوليه ، ثم تقتله ، وتمتنع في برجها بالقلعة في حماية مماليكها حتى تموت.

ساق الأستاذ العريان تفاصيل هذه الحوادث في قالب من الخيال القصصي الممتع ، وتسير معه وهو ينسق أشتاتا من الأحداث